



أشخاص

ماجد كامل

تلك الحقبة التي تختزن ذاكرة السينما العراقية

زياد عبد الله

يمكن أن يحدث أي شيء في كرويتسبيرغ، حي المهاجرين في برلين. يمكن صاحب المقهى أمام البناية التي تسكنها أن يقول لك «ما شاء الله» عوضاً عن «صباح الخير»، فهو تركي يريد أن يكلمك العربية. يمكن أن تعرف فجأة أن المصور السينمائي العراقي ماجد كامل هو جارك في البناية نفسها.

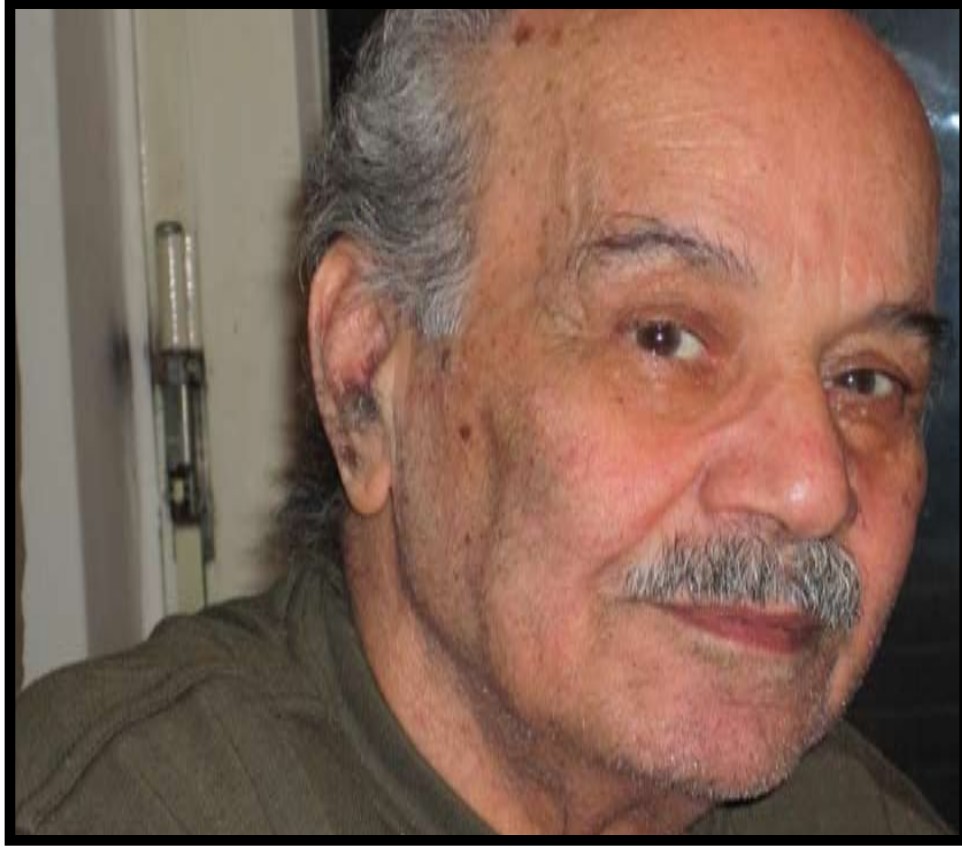
ستجده جالساً على كنبته ساهماً، وقد تمضي الوقت وأنت تحاول دفعه للحديث عن نفسه، بينما هو مصرّ على أن يكتفي بتاريخ السينما العراقية. متعلقاته ليست سوى بضع أوراق وصور وتذكارات وضعها في حقيبة جلدية، وذاكرة تمتد من الأربعينيات. ذلك قبل نهب المعدات السينمائية التي كان يحويها مبنى وحدة الإنتاج السينمائي في الصالحية قرب الكرخ، مع دخول القوات الأميركية إلى العراق... «كنا نريد أن نصنع سينما فصار العراق سينما»، يقول ماجد كامل.

لم يتزوج، يقول «لم يكن هناك من وقت... كانت هناك علاقات وعلاقات»، يكررها مرتين. يعيش وحيداً، قد يأتي أخوه نامق من لندن، ويخرجه من عزلته لأيام، ثم يعود إليها كما كنبته التي يستدعي إليها العالم، وأمامه تلفزيون صغير لا يفارق «بي. بي. سي». السينما كانت حياة كامل الشخصية. هو ما زال بانتظار أمه التي خرجت من البيت منذ أكثر من 20 سنة ولم تعد حتى الآن. بقي ينتظرها في العراق، وهو يضع الإعلان تلو الآخر في الصحف عن امرأة اختفت. حتى إن الاستخبارات استدعته وطالبته بالتوقف عن ذلك، معتبرة أن اختفاء امرأة لا يُعد شيئاً أمام العشرات الذين يقتلون يومياً إبان الحرب العراقية الإيرانية. السينما مجدداً تندخل مع حياته. حين غادر العراق إلى الكويت لوداع أخيه نامق، وجد القوات العراقية قد سبقته إلى هناك. عندما عاد، كان برفقتها وهي تنسحب من الكويت. حينها، شاهد الجحيم طوال طريق عودته كما لو أنه في فيلم خيال علمي.

انغماسه في السينما والتصوير هبط عليه بينما كان يبحث عن عمل مطلع الخمسينيات. عُين مع محمد شكري جميل ولطيف صالح وعاطف عبد الكريم وسيمون مهران في وحدة إنتاج الأفلام التابعة لشركة نفط العراق. «لم يكن خيار سينمائياً، المصادفة قادتني بمساعدة صديق متنفذ». أخضعوه لدورات تدريبية في التصوير والمونتاج والإخراج، بإشراف طاقم سينمائي إنكليزي على رأسه المخرج جون شرمان. حينها، لم يكن هناك من سينمائيين عراقيين، بل هواة ومحاولات ترتب عليها إنشاء «استديو بغداد» في الأربعينيات بمبادرة من تاجر يهودي كان يملك سينما «روكسي». أنتج هؤلاء حفنة أفلام بدوية على مبدأ «الكاوبوي»، مثل فيلم «عليا وعصام» الذي صور بكوادر فرنسية.

حدثنا ماجد كامل، أول مصور سينمائي في تاريخ العراق، عن برتقال بعقوبة، لأنه كان برفقة جون شرمان حين صور فيلماً عنه. كان اهتمام «وحدة إنتاج الأفلام» منصباً حصراً على الأفلام الوثائقية، والأولوية دائماً كانت النفط العراقي، وصناعة القوارب على ضفاف دجلة، وصولاً إلى فيلم يصفه ماجد كامل بالمهمّ حمل عنوان «العراق الخالد». تعيده الذاكرة إلى فيلم عن انهيار سدّ دجلة وغرق بغداد بالمياه، «حمل الفيلم عنوان قصيدة لنارذك الملايكة أضافها إلى الفيلم جبرا إبراهيم جبرا، الذي كان يشغل منصب مدير العلاقات العامة في شركة النفط». أول فيلم صورّه كامل كان عن «المصايف» في العراق ضمن الوحدة نفسها، وكان من إخراج العراقي فيكتور حداد...

سكنون التواريخ مفصلة في حياة ماجد كامل،



5 تواريخ

1934

الولادة في بغداد

1954

العمل مع وحدة إنتاج الأفلام التابعة لشركة نفط العراق

1962

صور في ديالى فيلم «قطار الساعة الـ7» إخراج حكمت لبيب

1963

عمل في تلفزيون ألمانيا الديمقراطية. بعد ثماني سنوات عاد إلى بلاده حاملاً بإحياء السينما العراقية

2010

كل شيء هادئ في كرويتسبيرغ، بعد هناك يتلصص على عراقه... ويتصارع مع المرض

حتى 1960. سيذكر أكثر ما يتذكر فيلم «قطار الساعة السابعة» (1962) للمخرج حكمت لبيب الذي صورّه بكاميرا محمولة في ديالى، وكان يحكي على طريقة الواقعية الإيطالية الجديدة حياة موظف في محطة قطار... إضافة إلى أفلام أخرى صورها في

أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. هجرة ماجد كامل إلى ألمانيا حدثت مرتين. الأولى كانت بعد انقلاب شباط 1963 والتضييق الأمني عليه. ومع وصوله إلى ألمانيا الديمقراطية، عمل في التلفزيون الرسمي الألماني، وتحديدًا في برنامج «عدسة»، الذي كان برنامجاً نقدياً. يرصد أي ممارسة خاطئة في التطبيق الاشتراكي في المؤسسات والدوائر والمعامل في ألمانيا الشرقية. التحق بمعهد السينما في بابلسبيرغ، وعمل بعد تخرجه في تصوير أفلام سينمائية مع مخرجين ألمان كبار مثل كارل غاس.

في عام 1971، استدعي إلى العراق، لإحياء السينما العراقية من جديد، في مرحلة يسميها «مرحلة الجبهة» ويعدّها اللحظة الأكثر إشراقاً في تاريخ العراق الحديث: «شعرت بأن كل شيء تغير، وبأن الأمل كبير، والأحلام ستتحقق»، لكن سرعان ما انهار كل شيء «على يد صدام حسين، الذي كان متربصاً بكل ما كان يبشر به عام 1971».

سيواصل ماجد كامل حياته في العراق. سيفتتح مكتبة بعد إحالته على التقاعد، ولن يبقى في نظر النظام السابق إلا شيوياً. حين عرف من صديق له أن تصنيفه الأمني هو: «مناوئ للنظام» اضطر مجدداً إلى العودة إلى ألمانيا بعدما توحدت، وصار لاجئاً. كانت عدسة الكاميرا هي الخلية التي رأى من خلالها العالم. هو الذي يبحث عن صورة له فلا يجد صورة مناسبة. تصوره فيثني على الصورة فتقول «هذه شهادة من مصوّر كبير». حين تساله عن أجمل الأفلام التي شاهدتها، يجابه السؤال بنزق. لا يتحدث عن أنطونيو ولا فيليني، ولا عن أي من هؤلاء المخرجين الذين وقع في غرامهم. يكون جوابه مفاجئاً: «إنه فيلم «الحدود» (لمحمد الماغوط ودريد لحام). أكرّر: «الحدود»؟ فهبّز رأسه تأكيداً. «إنه يحكي عن حياتي وحياة العراقيين».

خالد صاغية

«يصطفل» رشيد الضعيف

«يصطفل» رشيد الضعيف. بإمكانه أن يكتب ما شاء من الروايات، وأن يستهدف كل الفسحات بين المرأة والرجل. لكنّ رجالاً سيأتون بلباسهم العسكري ذات يوم، ليمنعوا صعود شخصياته إلى الخشبة.

«تصطفل» الجالية السودانية في لبنان. بإمكانها أن تمتلك حساً عالياً من المسؤولية، فتتّظم حفلاً لجمع التبرعات من أجل طفل مصاب بالسرطان. لكنّ رجالاً سيأتون بلباسهم العسكري ذات يوم، ليسخروا من لون المحتفلين ومن أغانيهم وملابسهم الملونة. فإنقاذ طفل في لبنان يحتاج إلى ترخيص.

«يصطفلوا» الفلسطينيّين. بإمكانهم أن يطالبوا بحقوقهم المدنية أو الإنسانية من الآن وحتى قيام الساعة. لكنّ رجالاً سيأتون بربطات عنق ذات يوم، ليعطوا دروساً في حقوق الإنسان التي يجب أن تبقى حكرًا على أصحاب الدم الأزرق.

«تصطفل» رابطة الأساتذة. بإمكانها أن تصرّ على أن العمل النقابي ما زالت له مساحته في هذا العالم. وبإمكانها أن تعتبر مطالبها محقّة. لكنّ مثقفي السلطان سيأتون ذات يوم، ليحجبوا عنهم حقوقهم. فالقانون لم يوضع دائماً من أجل التطبيق، والحقوق لا تعطى إلا للحاشية ولروابط الطوائف. الدولة لديها ما يكفي لتنفقه على رحلات الرؤساء العقيمة، وعلى إشباع نهم حيتان المال، أمّا الأساتذة فلينتظروا جيلاً آخر.

«يصطفلوا» السريلاكيات. بإمكانهنّ ألا يتحمّلن الإهانات والتعذيب، وأن يعتبرن حياتهنّ غير قابلة للاستمرار. لهذا السبب، أقمنا في بيوتنا شرفات. فليرمين أجسادهنّ منها.

«يصطفل» اللبنانيون جميعاً. ستقرّ الموازنة هذا المساء. وسيفقد مزيد من المواطنين حصانتهم أمام الضغط المعيشي، فيما تحمي المضاربات العقارية بقوانين إضافية. وسيأتي خبراء ذات يوم، يتأبطون ملفات كثيرة ليقتنونا ببيع ممتلكات الدولة، وبالحاجة إلى المزيد من الاستدانة، وبأن نطلق النار على أرجلنا. في تلك اللحظة التي نضغط فيها على الزناد ونصرخ «آخ»، سنعلم أنّ هناك من لن «يصطفل». أنّ هناك من يحتفل بترقية جديدة كلما «اصطفلنا». وهناك من يحتفل بثروة جديدة كلما «اصطفلنا». وهناك مدينة تخسر اسمها لا يمكن أن نتفرّج عليها وهي «تصطفل».